التفسيرات الغربية لنشأة الدين في حياة الشعوب والرد عليها (نظرية تطور الدين إنموذجاً)

Western Interpretations of the religion's Origin in People›s Lives and Responses to Them: The Theory of the Evolution of Religion as a Model

إعداد الباحث

أ.م.د. علي داود خلف الجنابي

كلية الإمام الأعظم الجامعة

Asst. Inst. Dr. Ali Dawood Khalaf Al-Janabi

Al-Imam Al-Adham University College

Dr.alidaoud4@imamaladham.edu.iq

07732435693

الملخص

يناقش هذا البحث مفهوم الدين عند المفكرين الغربيين، القدامى منهم والمعاصرين، لمعرفة أبرز النظريات التي طرحوها والراجح منها عندهم، ويهدف البحث إلى معرفة مكانة الدين عن المفكرين الغربيين، وهل أن رؤيتهم تتماشى مع ما يعتقد علماء المسلمين ومفكريهم من أنه وحي إلهي، أم أنهم يرون بأنه تعليمات وسلوكيات يضعها أشخاص لهم مقبولية في مجتمعاتهم؟، وبعد التعرف على أقوالهم في هذا الموضوع، توصل الباحث إلى أن علماء الغرب ومفكريهم ينفون ربط الدين بالوحي، ولا يعتقدون بأنه توجيهات إلهية، بل يعتقدون بأنه عبارة عن جهد بشري قابل للنقد والتعديل بمرور الزمن، ثم عمل الباحث على تفنيد هذه الرؤية.

الكلمات المفتاحية : (نشأة، الدين، تطور، الغرب، نظرية).

Abstract:

This research discusses the concept of religion according to ancient and contemporary western thinkers، aiming to identify their prominent theories and which ones they consider most valid. The research seeks to understand the statues of religion among western thinkers and weather their views align with those of Muslim scholars and thinkers، who regard religion as divine revelation، or if they see it as a set of instructions and behavior established by individuals who are accepted in their societies. After examining their opinions on this topic، the researcher concluded that western scholars and thinkers deny the association of religion with revelation. they do not believe it to be divine guidance but rather view it as a human effort that subject to criticism.

Keywords : (Origin، Religion، Evolution، the West، Theory).

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

إن نشأة الدين موضوع مهم، إذ يعرف ويفهم حسب تعريف كل إنسان له بناءً على خلفيته الفكرية والعقدية، وأغلب التعريفات عند علماء الغرب ومفكريهم هي تعريفات ذاتية، أي أنها تحاول إثبات صحة ما يؤمن به الإنسان وإخراج مالا يؤمن به ويعتقد به، على عكس علماء الدين المسلمين الذين لهم ضوابط واضحة المعالم في تعريف الدين وتحديد مكانته، وانطلاقاً من هذا الخلاف الجوهري في تحديد مفهوم الدين بين الفريقين، حاول كثير من العلماء الغربيين تفسير ظاهرة التدين في حياة الإنسان، ولكنهم اختلفوا في تعريف الدين وكذلك اختلفوا أيضاً في محاولة تفسير نشأة الدين، وكثير منهم اعتبره نمط من أنماط السلوك في علم الاجتماع الديني، وانه خاضع لنظرية التطور، إذ يجدون بأن كثير من العقائد الموجودة في الأديان ما هي إلا صناعة ذهنية إنسانية وليست وحي من الله الخالق.

وعليه فقد عملوا على ربط نشأة الدين في حياة الشعوب بالتكيف التطوري، وأن الدين ما هو الا ظاهرة اجتماعية مثل كثير من الظواهر التي صنعها الإنسان، في حين يُقدِّم بعض العلماء ربطًا بين (الدِّين والأخلاق)، لكنَّ هذا الرَّبط يُعدُّ متأخِّرًا في تاريخ الأديان؛ لذلك جاء هذا البحث للخوض في هذه التفصيلات المهمة لمعرفة فلسفة علماء الغرب ومفكريهم حول الدين ومكانته في حياتهم.

وتبرز إشكالية البحث:

١- كيف تشكلت النظريات الغربية في نشأة الدين في سياق تاريخي وفلسفي غربي؟

٢- ماهو الدليل على أن الدين عبارة عن ظاهرة اجتماعية مثل كثير من الظواهر التي صنعها الإنسان ؟

٢- كيف تعكس التفسيرات الغربية التطورية لنشاة الدين ؟

منهج البحث:

أعتمد الباحث المنهج التحليلي النقدي المقارن، بالاستناد إلى النظريات الغربية لتطور الدين من خلال مفهوم الدين وبيان رأي العلماء الغربيين ورأي العلماء المسلمين و حججهم في نظرية تطور الدين ونقدها من خلال ارآء العلماء المسلمين وفق العقيدة الإسلامية .

أهمية البحث :

تكمن أهمية هذا البحث في أنّه يتناول التفسيرات الغربية لنشأة الدين في حياة الشعوب , لفهم وتوجيه انتقاد اللمنظورات الغربية في تفسير نشأة الدين , كون علماء الغرب ومفكريهم ينفون ربط الدين بالوحي، ولا يعتقدون بأنه توجيهات إلهية، بل يعتقدون بأنه عبارة عن جهد بشري قابل للنقد والتعديل بمرور الزمن وفق التكيف التطوري، وأن الدين ما هو الا ظاهرة اجتماعية مثل كثير من الظواهر التي صنعها الإنسان, ومن ثم الر د على هذه التفسيرات وفق العقيدة الإسلامية .

خطة البحث:

المبحث الأول : تمهيد لبيان مفهوم مصطلح الدين وماهية التفسيرات الغربية لنشأة الدين.

المطلب الأول : مفهوم الدين بين رأي العلماء الغربيين والعلماء المسلمين.

المطلب الثاني : ضوابط تعريف الدين عند علماء المسلمين ومقارنتها بالعلماء الغربيين

المطلب الثالث : التفسيرات الغربية لنشأة الدين.

المبحث الثاني : نظرية تطور الدين وآراء العلماء الغربيين فيها.

المطلب الأول : نظرية تطور الدين وآراء العلماء الغربيين فيها.

المطلب الثاني : نقد نظرية تطور الدين والرد عليها.

المطلب الثالث : موقف العقيدة الإسلامية من مسألة نشوء وتطور الأديان.

الخاتمة.

المبحث الأول
تمهيد لبيان مفهوم مصطلح الدين وماهية التفسيرات الغربية لنشأة الدين

المطلب الأول : مفهوم الدين بين رأي العلماء الغربيين و رأي العلماء المسلمين.

أولاً: تعريف الدين لغة :

إن كلمة دين في اللغة العربية تعني عدة معان، وذلك بتأثير الفعل الذي يؤخذ منه الكلمة، «فالدين جاء من الفعل الثلاثي مشتق من دان، وهو يتعدى تارة بنفسه»، وتارة باللام، وتارة بالباء، ويختلف المعنى وفق ما يتعدى به، فإن تعدى بنفسه يصير دانه بمعنى ملكه، وقهره وساسه، وجازاه، وأن تعدى باللام يصبح دان له بمعنى خضع له، وأطاعه، بينما عندما تعدى بالباء يصبح دان به بمعنى اتخذه ديناً ومذهباً واعتقده، وقوم سلوكه وخلقه «[1].

وترجع هذه المعان اللغُوية للدين إلى معان اصطلاحية تم تداولها لبيان العلاقة الوثقى بين العابد والمعبود ؛ لأن الدين يتماهى مع فكرة الإخضاع لا بصورة الإذلال بل يتعامل مع الحاجة النفسية في تكوين الإنسان الخلقي إلى مرجعية روحية تمثل الملاذ الآمن للرجوع دون إكراه ولا إجبار، وذكر محمد عبد الله دراز[2] , «أن المتأمل فيما ذكرته المعاجم اللغوية لمعاني كلمة الدين، يجد أن هذه المعاني متعددة وبعيدة عن بعضها»؛ بل المعاجم اللغوية لا تقدم لنا المعنى اللغوي المراد معرفته الدقيقة للوصول لتعريف كلمة الدين»، وإنما تكشف لنا عن الوجوه المُتشعّبة لمعاني هذه الكلمة. ونلتمس لهذه المعاجم العذر؛ لأنّها وُضِعت لضبط الألفاظ، لا لتحديد المعاني»[3].

---

(١) لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الانصاري دار العلم للملايين، بيروت لبنان، الطبعة السابعة، ١٩٨٦م.،١٣/١٥٥-١٧٠، وكذلك : القاموس المحيط: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت-لبنان، الطبعة الرابعة،١٤١٥هـ-١٩٩٤م ٤/ ٢٥٥ باب النون، فصل الدال.

(٢) الدين : بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، محمد عبد الله دراز، دار القلم للنشر والتوزيع الكويت، ط٢ (١٣٩٠هـ ١٩٧٠م)، ص ٣٣.

(٣) الدين، محمد عبد الله دراز، ص٢٢

ثانياً :الدين إصطلاحاً:

تتعدد التعريفات الاصطلاحية للدين سواء عند الغربيين أو عند علماء المسلمين.

إن كل عالم حاول أن يستمد تعريفه للدين حسب فهمه ومجال تخصصه، فنجد عند :

أ- الغربيين:

١- اميل دور كايم [١] يعد الدين مؤسسة إجتماعية قوامها التفريق بين المقدس وغير المقدس، ولها جانبان أحدهما روحي مؤلف من العقائد والمشاعر الوجدانية، والاخر مادي مؤلف من الطقوس والعادات، والملاحظ أن تعريف أميل دور كايم، يتوافق مع المفهوم الاجتماعي للدين ، وهو من خلال هذا التعريف يكرس فكرة الاتصال الروحي من خلال التحليل الإجتماعي والفكري للمتدينين، والتمييز بين ما هو مقدس وغير مقدس، فضلا عن التباين الظاهر بين الروحي والمادي في العقيدة وممارسة الشعائر، وأنطلاقاً من فكر الإجتماع الديني الذي لا يميز بين الدين الموحى به من عالم الغيب، والدين الذي صنعه الأنسان على الأرض[٢].

٢- كانت[٣] عرفه في حدود العقل، بقوله : «أن الدين هو الشعور بما يتوجب علينه القيام من إذ كونها قائمة على أوامر إلهية معروفة».

٣- «شلاير ماخر»[٤] عرفه في أحدى مقالاته: «أساس حقيقة الدين هو بشعور الفرد بالحاجة والتبعية المطلقة»[٥].

---

(١) فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي، وأحد مؤسسي علم الأجتماع الحديث ينظر : رواد علم الأجتماع، ص ٥٨.

(٢) ينظر : الأشكال الأولية للحياة الدينية، ايميل دوركهايم، ص ٤٥.

(٣) إمانويل كانت (١٧٢٤-١٨٩٤م): «فيلسوف الماني وضع العقل في صلب الوجود ومحوره، من مؤلفاته: نقد العقل الخاص- نقد الحكم - اسس ما وراء الأخلاق»، وكذلك : ينظر :الموسوعة الفلسفية المختصرة، ترجمة فؤاد كامل وزميلاه، بيروت، دار القلم، ص٣٢٩-٣٣٠.

(٤) فيلسوف وعالم لا هوتي، عرف عنه محاولته التوفيق بين الأنتقادات الموجهة إلى التنوير مع المسيحية البروتستانتية التقيدية، وهو مؤثر في تطور النقد العالمي ينظر : الدين بين الأخلاق والميتافيزيقا عند شلاير ماخر، ص ١١.

(٥) الأشكال الأولية للحياة الدينية، ايميل دوركهايم، ص ٤٧.

٤- الأب شاتل عرفه : «أن الدين هو عدد من واجبات المخلوق نحو الخالق: واجبات الإنسان أتجاه خالقه، واجباته نحو المجموعة، واجباته نحو نفسه «[١].

٥- وايتهد [٢] عرفه بقوله : إنّ الدين هو أساس لشيئ ما قائم على ما وراء السيل العابر للأشياء المباشرة، أو غير المباشرة ؛ وهي ثمة أشياء حقيقية , ولكنه مع ذلك لا يزال يتأمل تحقيقها، فهي بمثابة صعوبة في إمكانية الوصول وتحقيقها ؛ فشيئ يحسب امتلاكه بمثابة الخير الكبير ولكنّه في الآن نفسه صعب بل عصي عنُ المنال.[٣]

وهنا نجد وايتهد نحى منحى صوفيا في تعريفه للدين ويبين أنه عبارة عن عقيدة باطنية يعيشها المؤمن وينتظر أن تحقق له شيء ولكنه بعيد المنال، وهي أقرب ما تكون لأفكار المتصوفة.

إما تعريف الدين عند علماء الأنثروبولوجيا [٤] كلباترك[٥] فهو هو منظومة من الأفكار المجرّدة والقيم والتجارب التي تنبثق من سياق الثقافة التي ينتمي إليها الإنسان، ومن ثمّ يشكّل الدين رؤية شاملة لا غنى عنها لتنظيم فهم الفرد للعالم وتوجيه أفكاره وسلوكه. ويرتبط الاعتقاد الديني غالبًا بقضايا الوجود والطبيعة وتصوّر العلاقة بالقوة العليا المدبّرة، سواء كانت إلهًا واحدًا أم آلهة متعددة، وما يترتب على ذلك من ممارسات وشعائر يكتسبها الأتباع من مرجعياتهم الروحية. أما في الديانات الإبراهيمية السماوية، فإن ركائز الإيمان الأساسية لا تُعدّ نتاج تجارب بشرية متوارثة فحسب، بل مصدرها الوحي الذي يكشفه الله إلى أنبيائه ورسله، فيكون هو الأساس المعتمد لتشريع العقيدة وتنظيم العلاقة بين الإنسان وربّه. [٦].

إن علماء الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) لا يميزون بين الثقافة والدين ويعدون الثقافة اسبق وأعم وأشمل، وأن الدين جزء من الثقافة وهذا يبنى عليه فكرة أن الثقافة والدين والفن والفلسفة

(١) الدين، عبد الله دراز، مؤسسة اقرأ، ص٣٤.

(٢) هو ألفريد نورث وايتهد، فيلسوفانجليزي و من فلاسفة الواقعية ينظر : اميتافيزيقيا وايتهد، مكتبة النور، ص٩

(٣) وايتهيد، الفرد، كيف يتكوّن الدين؟، ترجمة وتقديم : رضوان السيّد، جداول للنشر، آذار-مارس٢٠١٧م،

(٤) ينظر : نحو علم الإنسان، أكبر أحمد ،دار النفائس للنشر والتوزيع، ص ٧٩

(٥) هو ويليام هيرد كيلباتريك، تربوي وفيلسوف أمريكي ينظر : رواد علم الأجتماع، ١٩٥.

(٦) موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة: خليل احمد خليل، إشراف :احمد عويدان، دار عويدا، بيروت – باريس، ط١، ص١٢٠٣-١٢٠٤

شيء واحد صنعه الإنسان كما يعتقد علماء الأنثروبولوجيا الغربيين[١].

ب- عند علماء المسلمين:

إن تعريف الدين عند علماء المسلمين فقد أشتهر عندهم تعريف الدين بأنه، وضع إلهي سائق لذوي العقول السليمة باختيارهم إلى الصلاح في الحال والفلاح في المآل.

أو هو وضع إلهي يرشد إلى الحق في الإعتقادات، وإلى الخير في السلوك والمعاملات[٢].

فعند :

١- أبوالبقاء الكفوي في كتابه الكليات، عرف الدين بقوله : «هو وضع إلهي سائق لذوي العقول بأختيارهم المحمود إلى الخير بالذات قلبيا كان أو قالبياً» ، «كالاعتقاد بالعلم والصلاة»، وقد يتجوز فيه فيطلق على الأصول خاصة فيكون بمعنى الملة، إذ ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾[٣] وأيضاً قد يتجوز، فيطلق على الفروع خاصة، إذ ،أي الملة القيمة يعني فروع هذه الأصول[٤]، وقد يتجوز فيه أيضاً، فيطلق على الفروع خاصة، إذ ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾[٥]، أي الملة القيمة يعني فروع هذه الأصول[٦]، كما لم يبتعد الإمام الجرجاني عن هذا المفهوم في تعريفه للدين، إذ عبّر عنه بأنه «وضعٌ إلهي يَحُثُّ أصحاب العقول على ما جاء به الرسول محمد ﷺ». وبذلك يظهر أن «الدين والملة متحدان من جهة ومختلفان من جهة أخرى»، بحسب الاعتبار؛ فالشريعة إذا نُظر إليها من حيث وجوب الطاعة والانقياد سُمّيت دينًا، وإذا نُظر إليها من حيث اجتماع الناس عليها سُمّيت ملة، وإذا اعتُبرت من إذ كونها مرجعًا لأتباع اجتهاد معيّن سُمّيت مذهبًا. وقيل: إن الفروق الدقيقة بين المصطلحات الثلاثة تكمن في نسبتها؛ فالدين يُنسب إلى الله تعالى باعتباره أصل التشريع، والملة تُنسب إلى الرسول لأنه المبلّغ لها، أما المذهب فيُنسب إلى المجتهد لأنه ثمرة اجتهاده وفهمه

---

(١) ينظر : الإسلام من وجهة نظر علم الاناسة، كليفورد غيرتز، ترجمه أبو بكر باقادر، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، ص ١٠٨.

(٢) الدين، عبد الله دراز، ص ٣٤-٣٥.

(٣) سورة الأنعام، الآية١٦١.

(٤) الكليات، ابولبقاء الكفوي، ، تحقيق : عدنان درويش، ط٢، مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٩٨م، ص١٨٢.

(٥) سورة البينة، الآية ٥.

(٦) ينظر تفسير الطبري، ص٥٩٨.

للنصوص الشرعية. [١]

وعرفه التهانوي: «الدين وضع الهي سائق لذوي العقول باختيارهم إياه يرشدهم الى الصلاح في الحال والفلاح في المآل»[٢].

المطلب الثاني : ضوابط تعريف الدين عند علماء المسلمين ومقارنتها بالعلماء الغربيين

أولاً : أن كلمة الدين لا تطلق إلا على الدين الصحيح النازل من السماء، أما الأديان الوضعية التي صنعها الإنسان فلا تسمى ديناً لأن الدين وضع الهي نازل من السماء، بينما العلماء الغربيين لم يميزوا بين أنواع الأديان ولا درجاتها ولا مصادرها واعتبروا أي معتقد يسمى دين حتى لو كان مجرد طوطم[٣] .

ثانياً : أن العلماء المسلمين اعتبروا أن الدين أعم وأشمل من الثقافة والثقافة جزء من الدين وعلى سبيل المثال فالثقافة الإسلامية مستمدة من الدين الاسلامي، وهكذا كل الثقافات، بينما العلماء الغربيين اعتبروا الثقافة أعم وأشمل وأن الدين جزء من الثقافة وكلها من صنع الإنسان.

ثالثاً: أن العلماء المسلمين ذكروا في تعريفهم للدين فائدة الدين وهي الصلاح في الحال أي إصلاح الانسان في الدنيا، والفلاح في المآل أي في الآخرة.

بينما نجد العلماء الغربيين لم يتطرقوا نهائياً لفائدة الدين في حياة الشعوب، وانطلاقا من البراجماتية التي يؤمن بها الغرب، فالدين لا فائدة منه وبالتالي هو مجرد ظاهرة اجتماعية في حياة الإنسان انتهى دورها في عصر العولمة.

رابعاً : أن التميز الدقيق لدى علماء الدين الإسلامي بين الدين والملة والمذهب، بهذه المصطلحات الثلاث، وأن كان بينهما أرتباط، فهي كلها تعود إلى الأصل وهو الدين وهو واحد خلاف الملة فيمكن للملل أن تتعدد كملة سيدنا محمد ﷺ، وملة سيدنا عيسى عليه السلام، باعتبار التابعين لهذا الدين أو ذاك، إذ تتحكم في ذاك مناطق وجود أتباعه جغرافيا

(١) ينظر : الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة، ناصر العقل، ص ١٠.

(٢) كشف مصطلحات الفنون، التهانوي، ١٤١/٢.

(٣) ينظر: فهوم تجديد الدين، بسطامي محمد سعيد خير، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، جدة - المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م: ٢٠٥/١.

بحسب بيئته الثقافية، إذ تتلقي هذه الافراد الدين بحالات قد تختلف في بعض تفاصيلها[١]، فمثلا في الديانة الإسلامي تكون المسألة ظاهرة، فالدين من الله عز وجل أي من الوحي، بينما الملة هي ملة الرسول والأنبياء وخاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ.

وبالقياس على أصل الشريعة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فإن المذهب يعود إلى اجتهاد العلماء، مثل اجتهاد الأئمة الأربعة و غيرهم من أصحاب المذاهب الفقهية.

المطلب الثالث : التفسيرات الغربية لنشأة الدين.

حاول كثير من العلماء الغربيين تفسير ظاهرة التدين في حياة الإنسان، وكما اختلفوا في تعريف الدين اختلفوا أيضاً في محاولة تفسير نشأة الدين، وكثير منهم اعتبره نمط من أنماط السلوك في علم الاجتماع الديني.

فلو اخذنا النموذج الأول : رأي أتران (Atran) وبويرا [٢] (Boyer) الذي أعتبر أن ظاهرة الدّين هي «خليط كبير من الأفكار والسلوك مع العديد من الأصول التطوّريةّ المستقلة، المتواجدة خارج الدّين نفسه»[٣].

إذ يتضح من النص المنقول أنه يفسر ظاهرة الدين على أنه مجرد شكل من أشكال السلوك و هو خاضع لنظرية التطور.

ويقرر أيضاً أن كثير من العقائد الموجودة في الأديان ما هي إلا صناعة ذهنية إنسانية إذ «لدى الإنسان كم هائل من القدرة الذهنية القادرة على أستحداث وتقبل صور متعددة غير قابلة للملاحظة»، «فهي عوامل تمكن الأشياء الحقيقية من الحدوث»، وتوجد عدة أمثلة لا حصر لها في الدّين عن العوامل غير القابلة للملاحظة مثل : "الآلهة والأشباح" و "السحرة والملائكة ", والأرواح والقدّيسين , والكائنات الفضائيةّ". [٤].

---

(١) ينظر : الدين (بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان)، دار العلم للنشر والتوزيع – القاهرة، ٢٠٠٣م.، ص ١٢٥.

(2) Atran، S; Norenzayan، A (2004). Religion's evoliti nary lanpscape: counterintuition، commitment، compassion، communion . The Behavioral and Brain Sciences. Behavioral and Brain Sciences. 27 (6): 713–30، discussion 730–70. نقلا من موقع www: wikipiedia.org.

(٣) ينظر : الدين والعلم، شكري بوشغالة، مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، ص ٦٩.

(٤) ينظر: الأديان في علم جان بول ويليم، ترجمة: نسيمة بدران، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت (١٤٢١هـ ٢٠٠١م)، ص ٦٩.

إما النموذج الثاني الغربي في تفسيره لظاهرة التدين، فهو المصنف الفئوي المقدَّس، ويقرر أصحاب هذه الفكرة أن القدرة العقلية تقسم الأشياء على أصناف مدنسَّة و مقدَّسة، و يعد المقدَّس أجل وأقوى ويجب احترامه، فتظهر قواعد السلوك بحسب الأشياء المقدَّسة وغير المقدَّسة، ويتبع كثير من علمائهم هذه الفكرة، فمثلاً ناقش (روي راب)[١] القدسيةَّ باستفاضة وحاول ربطها بالتكيُّف التطوُّري وذلك لأنَّها تحاول السيطرة على الطريقة التي تتعامل بها الجماعات البشريَّة مع البيئة، إذ تنسق الإشارات القدسية الاستجابات الجماعية تجاه التغيرات البيئية، كما أشار آخرون إليها أيضاً مثل (دوركهايم) إذ عامل القدسيةَّ على أنها عنصرمركزي في تعريفه، و يقترح عالم الأنثروبولوجيا الإدراكية (باسكال بوير)[٢] في كتابه «الدين مُفَسّراً» : أنّه لا يوجد تفسير بسيط للوعي الديني، وهو يعتمد في ذلك على أفكار علماء الأنثروبولوجيا المعرفية [٣]، أي تطور المعرفة الإنسانية.

وأما النموذج الثالث لظاهرة السلوك الديني، فهو التضحية العامَّة، وفقًا لنظريات إيرونز وسوسيس وألكورتا، ويعد من قبيل الإلتزام التضحية تجاه مجموعة خاصة من خلال تفعيل فكرة التعاون بين أفرادها، ووفقًا "لإيرونز وسوسييس" فإنَّ صعوبة تصنع أعمال التضحية تبينّ للجماهير أنهَّ يمكن الوثوق بشخص ما، فليس أغلب التضحيات تكون دينيةّ؛ فتضحياتها الدينيةَّ متميزة باسلوبها الذي يقوم على الإيثار "[٤]، وتتمُّ بصورة علنية متفاخر بها، ويمكن الإسترشاد بفلسفة المقدس المشتركة، و قد يستفيد الأقارب والذرية من التضحيات غير الدينية، ويمكن تفسّيرها بشكل أفضل تطوريا فيعدها إيثارًا لاقربائه، و يضع التعقيد الذي يعرف بتبادل الإشارات في التضحية العامَّة التي تعرف بعد تطوُّرها بـ (رمزية التراسل المقدَّس)[٥].

ولهذا نتوصل إلى تعريفاً مؤقتاً للدين بوصفه سلوك داخل أيّ فرد من هذه النماذج الثلاثة المختلفة [٦].

---

(١) روي آى رابابورت ١٩٦٧ Roy A. Rappaport خنازير السلف: طقوس في علم البيئة من سكان غينيا الجديدة.

(٢) عالم نفسي فرنسي ولد في القرن العشرين ينظر : مجلة الطبيعة عدد ٢٠٠٨م

(٣) Lienard، P.; Boyer، P (٢٠٠٦). Whence collective rituals? A cultural selection model of ritualized behavior. American Anthropologist. ١٠٨ : ٨٢٤–٨٢٧.

(٤) المقدس والعادي، إلياد مرسيا، ترجمة عادل العوى، صحارى للصحافة، ١٩٩٤م، ص ١٠

(٥) ينظر : ما أصل الإنسان، موريس بوكاي ص٣٠

(6) https://ta3riif.blogspot.com/2019/03/blog-post.html.

ويتضح لنا مما سبق أن العلماء الغربيين حاولوا تفسير ظاهرة الدين، لكن وفقا لنظرياتهم المادية التي تنكر الغيب والوحي، وتؤمن بنظرية التطور التي فسرت أصل الإنسان عندهم، فحاولوا ربط نشأة الدين في حياة الشعوب بالتكيف التطوري، وأن الدين ما هو الا ظاهرة إجتماعية مثل كثير من الظواهر التي صنعها الإنسان.

ويُلاحَظ في دراسة الظاهرة الدينية أن انتقال الفكرة التطورية الداروينية من العلوم الطبيعية في القرن التاسع عشر إلى ميدان العلوم الاجتماعية في القرن العشرين أدّى إلى طرح تساؤلات جديدة حول الدور الوظيفي الذي قد يقدّمه الدين في مسار تطور الإنسان وتكيّفه مع محيطه, ونتيجة لذلك ظهرت عدة نظريات تحاول تفسير نشأة الدين واستمراره التاريخي، غير أنّ كل نظرية منها عالجت جانبًا محددًا من الظاهرة، دون أن تنجح أيّ منها في تقديم تفسير شامل ومتكامل لها.(١)

فعلى سبيل المثال: «قدّم إميل دوركايم وتيّاره السوسيولوجي تفسيرًا يجعل الدين مصدرًا أساسياً للتماسك الاجتماعي وبناء الروابط الجمعية. إلا أنّ الواقع يكشف أن أنظمة القرابة القائمة على رابطة الدم في المجتمعات الأولى وفي مجتمعات الصيد وجمع الثمار كانت أقدر على إحداث هذا التماسك، كما أن الدين قد يؤدي في ظروف أخرى إلى الانقسام والصراع بدل الوحدة».(٢)

وكذلك حاول بعض الباحثين الربط بين الدين والأخلاق، إلّا أنّ هذا الربط يُعد متأخرًا نسبيًا في تاريخ الأديان؛ فالشر في الديانات القديمة لم يكن مفهومًا أخلاقيًا يتعلّق بالمسؤولية، بل كان وجودًا كونيًا محضًا، مماثلًا للخير في أصالته وفاعليته. فلم يكن العالم في تلك التصورات محكومًا بإله خير مطلق كما في الديانات التوحيدية (٣) , بل كان ميدان تنازع بين قوى خيّرة وأخرى شريرة، والشر جزءٌ ثابت في نسيج الكون لا يمكن مقاومته أو الخلاص منه بإرادة الإنسان وحدها. ومن ثم لم يتحقق الربط بين الدين والأخلاق على نحو واضح إلا مع ظهور الديانة الزرادشتية بوصفها واحدة من أوائل الديانات التي أقامت علاقة جوهرية بين

(١) ينظر : دين الإنسان، فراس السواح، بحث في ماهية الدِّين ومنشأ الدافع الديني، دمشق: دار علاء الدين، د. ت، ص١٢٢.

(٢) ما أصل الإنسان، موريس بوكاي، ص٣٢.

(٣) تاريخ علاقة الارتباط بين التنظيم الاجتماعي والأخلاقيات والدين، دافيد سي. لاتي، ص١١١.

المسؤولية الأخلاقية والعقيدة. (١)

وقد عقد علماء آخرون صلة بين (الدِّين و إقامة المعنى والطُمأنينة النَّفسيَّة) لكن هذه العلاقة لا يمكن تجاهلها بسبب الجانب الروحي الذي تتضح وتكتمل به فائدة الدِّين وربما يتحول إلى مصدر قلقاً في نفس الفرد بسبب ما يتعرَّض الإنسان له من ضغط المساومة بين مبادئه الدِّينية وحياته العمليَّة، وربما يتعرض للخذلان بسبب ما يعانيه في انتظار خلاصه كما يصرِف وقته في إعمال فكره وعقله لترميم أفكار الدين التَّقليديَّة التي أقامها بداخله في مواجهة العبثية الحياتية، وقد تحدث فرويد المشهور بعصابة الحياة في كتبه لكننا نواجه فيها الضبابية والتخبط الذي يعيشه علماء الغرب في محاولة تفسير الظاهرة الدينية وبناء على ما تقدم فأن الباعث على التدين أو الدافع الذي جعل الإنسان ينشئ هذه الظاهرة السلوكية الاجتماعية حسب رأيهم هو شيء يتعلق بالإنسان والطبيعة (٢)، واختلفوا في تحديده إذ جاء ذلك بثلاثة أقوال :

١- قول جيفونس(٣): ذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن الدافع إلى التدين عند الإنسان الأول يعود إلى الخوف من قوى الطبيعة المهيبة من حوله: من برق ورعد وزلازل وبراكين، ومن الحيوانات الضارية التي كانت تهدد حياته الهشة في تلك العصور. وبسبب شعوره بالعجز وانعدام الحيلة أمام تلك الظواهر، لجأ إلى البحث عن قوة غيبية كبرى تحيط بالطبيعة وتتحكم فيها، وتملك القدرة على حمايته من أخطارها. فعبد الشمس والقمر والبحار وغيرها مما رأى فيه مظاهر للقوة والتسلط، معتقدًا أنها القادرة على منحه الأمن والسلامة. (٤)

وتلتقي هذه النظرية مع سابقاتها في عدّ العقيدة الدينية نتاجًا لحاجات نفسية يواجه بها الإنسان ضغوط حياته اليومية ومشكلاتها. غير أنها تركز على جانب الطبيعة وقوانينها الثابتة التي لا يستطيع الإنسان تغييرها، فيرى نفسه مضطرًا إلى الخضوع والاستسلام للقوة الكامنة وراء هذه القوانين التي تتحكم في الكون وتفرض سلطانها عليه.(٥)

---

(١) التطور البيولوجي للعقل والسلوك الدينيين، ترجمة: مصطفى فهمي، القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٥، ص١١٠

(٢) نشأة الإنسان والإنتقاء الجنسي، تشارلز داروين، ترجمة: مجدي محمد المليجي (نشر وتوزيع المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة) ط١، ٢٠٠٥م، ٢٥٠/١.

(٣) هو وليم ستانلي جيفونز عالم منطق وأقتصاد انكيزي وأستاذ بجامعة مانشستر ينظر الموسوعة العربية.

(٤) قصة الحضارة، ديورانت ول : ترجمة زكي نجيب محمود، الأدارة الثقافية، ٩٨/١.

(٥) يُنظر : قصة الفلسفة الحديثة، زكي نجيب واحمد امين (مطبعة لجنة التأليف والترجمة / القاهرة)، ١٣٥٥هـ، ص٢٤٤.

ويعتمد (هنري برجسون)[١] في كتابه (ينابيع الخلق والدين) على محورين من تلك الحياة العادية أولهما: مرتبط بالقوانين الأدبية قوانين حددها العرف والعوائد وفرضها المجتمع [٢].

ثانيهما : مرتبط بالاحداث المستقبلة، التي تتطرأ وفق الإمكان، وتزيد الاحتمالات والمصادفات، فلا يمكن توقعها بصفة قاطعة [٣].

وقد تنشأ العقيدة الدينية بدافع من الاحساس بالمسؤلية اتجاه الجانب الاجتماعي، فبيان ذلك أنه لا بد للفرد أن يتخلى عن الحرص على منافعه الخاصة لصالح منفعة المجموعة التي ينتمي إليها، وتضحيته بجزء كبير من حياته المطلقة، وقد يتحمل متاعب تقتضيها مصلحة الاخر ولا يحصل منها على فائدة مباشرة .

٢- قول (ماكس موللر) : [٤] أن العقل هو الباعث على التدين وهو الذي دفع الانسان الى إنشاء الدين في حياته، فالإنسان تميز عن بقية الحيوانات بالعقل والإدراك، وهو الباعث الأساسي على التفكير في نشأة هذه المخلوقات والإعجاب بدقة صنعها، وتعظيمها، ثم بعد مدة من الزمن نضج فكره ليصل العقل بالتفكير بما وراء الطبيعة، وتوسعت مدارك العقل مع اللغة المستخدمة في الحديث عن الجمادات التي عدها من الأحياء ذوات الأرواح، فصار يتحدث إليها ويتشوف فيها الضر والنفع ثم تطور به الأمر إلى عبادتها وتقديسها ، وهكذا نشأ الدين في حياة الإنسان بسبب تفكيره العقلي الذي دفعة الاعتقاد بقوة موجودة في الطبيعة تستحق أن تعبد وتسيد وتطاع [٥].

٣- قول (دوركايم الفرنسي) : [٦] تعد الحاجة الإجتماعية المحضة الباعث على التدين، فالإنسان يعيش في جماعات وهو كائن اجتماعي بطبعه والمجتمعات الإنسانية تفتقد إلى نظم وقوانين تحفظ حقوقها وتصون حرماتها، فأوجد بعض البشر ظاهرة التدين لوضع

---

(١) فيلسوف فرنسي حاصل على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٧٢، ويعد من أهم الفلاسفة في العصر الحديث له عدة مؤلفات منها التطور الخالق.

(٢) اتطور الخالق، هنري برجسون، المركز القومي للترجمة ص١١٢.

(٣) هذا قول الانجليزي جيفونس في كتابه المدخل إلى تاريخ الديانات نقلا عن كتاب الدين د. محمد دراز ص١٢٥.

(٤) مستشرق ألماني من علماء اللغات والدارسين المتعمقين في دراسة الأساطير والأديان توفي ١٩٠٠م، الأعلام ١٤٥/٥.

(٥) الدين، محمد دراز ص٣٨.

(٦) هو أميل دور كايم عالم إجتماع فرنسي توفى ١٩١٧م, ينظر المنجد في الاعلام ص٢٩٠

القوانين المنسوبة للإله حتى تضبط السلوك الإنساني ويؤدي كل إنسان واجبه بمراقبة داخلية، واستطاع رجال الدين أن يسيطروا على المجتمعات ويضبطوا سلوكها من خلال فكرة التدين، والتضحية لأجل الدين.

يظهر واضحاً مما سبق سبب ادعائهم أن الدين مصدره الإنسان، وأن باعثه مشاهداته اليومية للظواهر الطبيعية المثيرة لإعجابه أو دوافع نفسية في الإنسان نفسه [1].

ومن خلال هذه التفسيرات المادية لنشأة الدين في حياة الشعوب، نجد أن العلماء الغربيين يستبعدون فكرة الغيب وعالم الغيب فهم لا يؤمنون الا بالمحسوس الموجود، وكل تفسيراتهم المنطق الأساس لها هو الوجودية ونظرية التطور، والرد عليهم يكون من خلال اثبات أن هناك عالمين عالم الغيب وعالم الحس، والغيب وهو الأعظم والأكبر وأنه لا يستطيع أي عالم أن يأتي بدليل مادي قاطع ينفي هذا العالم فالإنسان لم يستطع أن يحيط بالمحسوس من هذا الكون وهذا ما أثبت كثير من علمائهم فقالوا بأننا محاطين بعالم مظلم من الأسرار الكونية التي لم يستطع العلم تفسيرها فكيف يحكم على الغيب ونحن لم ندرك المحسوس.

وبخلاف الفكر الغربي، إذ يقرر العلماء المسلمون أن الباعث على التدين : هو الفطرة، وصدر الدين الأوحد هو الوحي الإلهي، فقد نص القرآن الكريم والسيرة النبوية المشرفة على أن الإنسان مفطور على الإقرار بالخالق والعبوديُة له والبراءة من الشرك إذ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾[2].

وقوله ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾[3].

تشهد الآية الكريمة للآية التي قبلها من خلال بيان أن الله عز وجل فطر ذلك في قلب أدم أبي البشر، وأنه حين خلقهم في بطون أمهاتهم وقبل ذلك أصلاب آبائهم أخذ عليهم المواثيق .

«وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي محمد ﷺ قال : يقول الله تعالى لأهون أهل النار عذاباً لو كانت لك الدنيا وما فيها أكنت مفتدياً بها فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم: أن لا تشرك

(١) ينظر : الله جل جلاله ,العقاد، ص١١٧.

(٢) سورة الروم، الآية ٣٠.

(٣) سورة الاعراف، الآية ١٧٢.

ولا أدخلك النار فأبيت إلا الشرك»[١].

ومما يدل على فطرة الله عز وجل للبشر في قضية الدين «حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها جدعاء»[٢] ومنه «حديث عياض بن حمار المجاشعى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته : ((ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم" مما علمني يومي هذا: كل مال نحلته عبداً حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً))[٣].

وما جاء من أدلة دامغة تؤكد أن الإنسان مفطور على التدين مذ خلق الله أبي البشر آدم وهي حاجة روحية مائزة رفعت الإنسان درجات على بقية المخلوقات وهو مبعوث في الآخرة عليها .

ومن خلال هذه الأدلة يتضح أمرآن هما:

الأول : أن هذه الفطرة لعبادة الله عز وجل تتأثر وتتغير وتنحراف بفعل مؤثرات خارجية، مرد ذلك انحراف الأمم السابقة و اللاحقة ورغبتها في عبادة الوثنيات والتماثيل في الأمم القديمة والحاضرة وقد وردت هذه المؤثرات في النصوص.

الثاني : تقسم هذه المؤثرات التي تؤل بالفرد إلى انحراف الفطرة عن هدفها الصحيح وفق هذه الأدلة على ثلاثة مؤثرات وهي:

١- المخلوقات النارية كالشياطين : وهم أصل هذه المؤثرات وأولها، كما دل على ذلك حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: ((ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا كل مال نحلته عبداً حلالٌ، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً)). [٤].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم، رقم الحديث ٣١٥٦.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين ،رقم الحديث ١٣٨٥.

(٣) أخرجه مسلم، كتاب اجنة ووصف نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة واهل النار، رقم الحديث ٥٢٤٠.

(٤) أخرجه مسلم، كتاب الجنة ووصف نعيمها وأهلها، باب صفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة

٢- الأبوان : في حال فقد الأبناء أبويهم يقوم المجتمع بهذه الوظيفة، ويعد هذا المؤثر الأقوى والأخطر لشدة تأثير الأبوين على أبنائهما، وجاء في حديث «أبي هريرة رضي الله عنه»، وسبب تقديم الشياطين على الأبوين لأنها المؤثرالخارجي الأول المسؤول عن انحراف الأبأُء أنفسهم[١].

٣- الغفلة : هي من عوامل المؤثرة في انحراف هذه الفطرة , إذ قال ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [٢].

ولو سأل سائل: ما الفائدة من الفطرة ؟ وهل هي في حالة من الضعف, إذ تتأثر بالمؤثرات المحيطة وتوصلها إلى انحرافها ؟، وهل الفرد يبتعد عن احدى هذه المؤثرات أو كلها؟

إن الإجابة هي : أن سبحانه وتعالى له حكمة سابغة اقتضت لتجعلها بهذه الحال لتمكين الهدف من ابتلاء الأفراد بالخير والشر, وبعدها محاسبته على عمله، و هذا لا يعني أن الفطرة وحدها كافية لذلك إذ لو كانت لما شاع الكفر والإنحراف في بعض الأمم، بل لأصبحت عندهم مناعة تقيهم الكفرفلا يحقق الابتلاء هدفه المنشود، ولله الحكمة البالغة .

واهل النار، رقم الحديث ٥٢٤٠.

(١) شرح صحيح مسلم , النووي , كتاب البر والصلة والآداب , ١٦ / ١٠٥

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٧٢.

المبحث الثاني
نظرية تطور الدين وآراء العلماء الغربيين فيها

المطلب الأول : نظرية تطور الدين وآراء العلماء الغربيين فيها.

ذكر الملحدون أن الكفر والشرك أسبق من التوحيد على هذه الأرض، وهو زعم مبني على إنكار عبودية الله الواحد الخالق، وزعموا أن مصدر الإنسان والمخلوقات الأساس هي الطبيعة، إذ كان مخلوقا مجهريا يسمى (أميبا)[١]، وبفعل الرطوبة تطورت هذه الكائنات حتى وصلت بعد قرون عديدة إلى صورة القرد، وبعد ذلك تطور القرد ليكون إنساناً، وادعوا أن هذه الإنسان البدائي في طور الطفولة العقلية كان بحاجة إلى إله يعبده ورمز يقدسه فأخذ يعبد آباءه و أجداده ، وقدس النباتات والأشجار، والحيوانات الضخمة، والشمس، والقمر[٢]، وكثير من الأشياء التي يستعظمها في نفسه[٣]، وحينما بدأت أفكار هذا الإنسان وأحاسيسه تتطور وصار له فكر متطور نوعا ما تخلى عن كثير من الآلهة التي كان يتوجه نحوها بالتقديس والعبادة حتى توصل في عهد الفراعنة إلى التوحيد، وهذا التوحيد لا يعني بالضرورة توحيد الأله الواحد عز وجل بل توجهوا لتوحيد (رع) اله الشمس عند المصريين.

ويجد أصحاب هذا الاتجاه أنّ الدين ليس وحيًا من عند الله تعالى، بل هو في تصورهم , نتاج بشري خالص نشأ وتطوّر مع الإنسان, وقد دفعت صعوبة تفسير الظاهرة الدينية في إطار التاريخ المحض عددًا من الباحثين إلى العدول عن محاولة تعقّب الدين بوصفه ظاهرة تاريخية ناشئة في طور من أطوار الوجود الإنساني؛ فاتّجهوا إلى القول بارتباطه بالإنسان منذ ظهوره الأول، بل وربما عدّوه سابقًا له، وفقًا للتأويل التطوري للمفهوم. [٤]

---

(١) «أميبا أو أميبه. حيوان أولى يتكون من خلية دقيقة ذات نواة وليس لها جدار، شكلها غير ثابت، ويتغير تبعاً لامتداد الأقدام الكاذبة وانكماشها». ينظر: الصحاح في اللغة والعلوم ص ٣٩.

(٢) ينظر : ما أصل الإنسان، موريس بوكاي ص٣٠

(٣) يُنظر: ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث، ٤٧٢/١.

(٤) ينظر : صندوق داروين الاسود، مايكل بهي، ترجمه: مؤمن الحسن وآخرون (مركز تكوين - المملكة العربية السعودية، ط١، ٢٠١٤م، ص ٦٤

وبناءً على هذا التصوّر، لم تعد المؤشرات الأثرية على التدين مقصورة على الإنسان العاقل فقط، بل نسبوها بوجه عام إلى أجناس الهومينيد كافة وما تفرّع عنها؛ كالإنسان المنتصب وإنسان النياندرتال، معتبرين أن تلك الآثار تُظهر بوادر طقوس أو معتقدات دينية بدائية.

كما ذهب بعضهم إلى ما هو أبعد من ذلك، فحاول تتبّع ما يصفونه بالبذور الأولى للتجربة الدينية في أقدم صورها الوجدانية، وربطوها بالآثار ومخلفات الأمم السابقة ,على سبيل الافتراض , كنظام الأمومة لدى الثدييات قبل ما يقرب من مئة وخمسة وثلاثين مليون سنة؛ بحجة أن علاقة الإرضاع ولّدت روابط عاطفية يُفترض أنها شكلت الأساس النفسي الأول للجانب الوجداني الذي يعبّر عنه الإنسان لاحقًا في صور دينية.[1]

المطلب الثاني : نقد نظرية تطور الدين والرد على العلماء الغربيين

يدّعي أصحاب هذا الاتجاه (أنّ الدين ليس وحيًا من عند الله تعالى، بل هو في تصورهم، نتاج بشري خالص نشأ وتطوّر مع الإنسان) وهي أزمة الأدلة العلمية لهم، وأن لرأيهم حجتين رئيسيتين:

أولاً : القياس على الصناعة: فكما تطوّرت الصناعات مع الزمن، كذلك ـ بزعمهم ـ تطوّر الدين.

ثانياً: التوحيد لا يُعدّ إلا مرحلة متأخرة في الوعي الإنساني؛ بدليل ما كشفت عنه الحفريات من آثار أقوام مارسوا الشرك وعبدوا آلهة متعددة.

غير أن هذا الاستدلالات فاسدة من الناحية المنطقية والعقلية، إذ تقوم على القياس مع الفارق لأسباب متعدّدة، من أهمها:

١- اختلاف طبيعة المجالين: أن الصناعة مادّية محسوسة، تخضع للتجربة والتعديل والتطوير, أمّا الدين فظاهرة معنوية غيبية، تتعلّق بالاعتقاد والتوجّه الروحي، ولا يصح قياس غير المحسوس على المحسوس بهذا الشكل المبسط المخل؛ لأن هذا أشبه بمحاولة قياس الهواء على الماء[2].

---

(١) ينظر : مذهب أنساني، جون بول سارتر، ترجمة: عبد المنعم حنفي، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة- مصر، د.ط، ١٩٦٣م، ص١١٢.

(٢) ينظر نشأة الدين والتدين بين التوحيد والتطور , أبو عطا الله ,فرج الله غبد الباري , مكتبة الأزهر الجديدة، ط٢ , ٢٠٠٢, ص ٤٨.

٢- اختلاف منهج المعرفة في كل من أصحاب الحجج :

أن الصناعة تقوم على الملاحظة والتجريب وتراكم الخبرة حتى بلوغ النتائج.

إمّا الدين فليس نتاجًا لتجارب بشرية تجري في المختبر، وإنما يرتبط بالوحي والإيمان وما وراء الحس, ومن ثم فإن قواعد الصناعة لا يمكن إسقاطها على الدين.

إن تناقض نتائج القياس مع الواقع التاريخي والمعاصر, فلو صحّ هذا القياس، لوجب أن يكون الإنسان اليوم في أعلى درجات صفاء العقيدة ونقاء التوحيد؛ لأن الصناعة بلغت ذروة التطور في عصرناالحالي , لكن الواقع يكذّب هذا تمامًا؛ إذ نشهد انتشار الإلحاد على نطاق واسع، وتفشّي الشرك والوثنيات القديمة بشكل متجدد في الشرق والغرب، ما يدلّ على أن التطور الصناعي لا يلازمه بالضرورة ارتقاء ديني.(١).

أما من يدعي إثباتهم (الاستدلال بالبذور الأولى للتجربة الدينية في أقدم صورها الوجدانية، وربطوها بالآثار ومخلفات الأمم السابقة)على قولهم هذا، فيجاب عليهم :

إن هذه الآثار منقوصة، فلا دليل على هذا الإدعاء سوى التخمين وهو فاسد، بالتالي فإن هذه الحفريات التي تدل على أن الأمم السابقة ابتليت بالشرك ، وهذا ما أثبت لاحقا نصيا في القرآن الكريم والسنة النبوية، ولا يمكن معرفة عبادة الإنسان الأول وعقائده الفكرية من خلال الآثار فقط إذ لا بد من العثور على هذا الإنسان الأول ويجدوا معه آثارا واضحة تدل على عقيدته وعبادته لتكون البذرة الأولى.(٢)

وكان من الضروري إدراك أن الأمم لا تستقر على حال واحدة في ممارساتها الدينية، بل تتقلب بين التوحيد والشرك ثم تعود إلى التوحيد من جديد؛ وأهل مكة شاهد جلي على ذلك، فقد كانوا على عهد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام موحدين، ثم انحدروا إلى الشرك، قبل أن تعود إليهم عقيدة التوحيد على يد النبي محمد ﷺ, ومن ثَم فإن معرفة ديانة جماعة ما في حقبة محددة لا تعني أنها لم تعرف غيرها، وإنما تدل فقط على ما كان قائمًا في ذلك الظرف التاريخي بعينه.

ويتبيّن بطلان الرؤية التطورية لنشأة الدين في ضوء الأدلة المتقدمة؛ إذ لم تستند في حقيقتها , إلا على ظنون وتخرصات لا تثبت عند المحاكمة العلمية، ولا تصمد أمام الحقائق

(١) ينظر: كتاب الله جل جلاله للعقاد، ص٢٧.

(٢) ينظر : دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية لسعود بن عبد العزيز الخلف، ص٣٤.

البيّنة التي تؤكد أن أول ما عرفه الإنسان من الدين هو التوحيد، وأن الانحراف إلى الشرك جاء تدريجيًا بعد زمن, فالإنسان الأول هو آدم عليه السلام, وكان نبيًا موحدًا، وأورث أبناءه الإيمان حتى وقع بينهم الانحراف بمرور الزمن.

لكن المرحلة الأولى من الوجود الإنساني بقيت منطقة محظورة على البحث العلمي التجريبي؛ لأنها سابقة لكل أثر مادي موثّق يمكن الركون إليه. وقد أقرّ العلماء بوضوح بأن الخوض في تلك البدايات خارج عن نطاق صلاحيات البحث العلمي، وأن محاولة رسم أحكام قطعية حول تلك الأزمنة إنما هو تجاوز لحدود المعرفة، وحكم يصدر عن «قاضٍ معزول» فاقد لأسس سلطته المنهجية, كما يعترف مؤرخو الأديان بأن عقائد العصر الحجري وما قبله لا تزال مجهولة لنا معرفة يقينية، وما يُكتب بشأنها أقرب إلى التخمين والرجم بالغيب منه إلى العلم(١).

وقد سلك بعض الباحثين طريقًا استدلاليًا معيبًا حين قاسوا ديانة الإنسانية الأولى على ديانات الشعوب المعزولة المتأخرة حضاريًا، بناءً على فرضٍ غير مبرهن يفترض أن هذه الأمم بقيت ثابتة لا تتبدل في عقائدها, وهذا افتراض يهدمه التاريخ تمامًا؛ إذ تثبت الشواهد الأثرية أن البشرية مرّت بدورات حضارية متعاقبة بين ازدهار وانهيار، وأن كل حضارة ناشئة قامت على بقايا حضارة سابقة, وفي ظل هذا التعقيد يصبح من المتعذر الجزم ببداية تاريخية قاطعة لأي نسق ديني, ويمكن للخرافات القديمة أن تكون منطلقًا لديانات لاحقة، كما يمكن أن تمثل ـ في المقابل ـ انحدارًا عن توحيد أصيل أفسدته الحروب والآفات الاجتماعية، فانحدر العقل معها واستسلم للدجل والأسطورة. (٢)

وقد أحسن هوفدنج(٣) القول حين قرر أن تاريخ الأديان لا يستطيع تقديم حل يقيني لمشكلة ظهور الدين في الإنسانية، لأن التاريخ لا يصوّر لنا تلك اللحظة الأولى في موضع معروف، بل يقدّم سلسلة متتابعة من صور دينية تطورت بدرجات متفاوتة، حتى إن أكثر القبائل بدائية التي نعرفها اليوم قد مرت بأطوار وتحولات لا يمكن تجاهلها. (٤)

---

(١) ينظر : المشترك بين الأديان السماوية والعالمية، سومية حجاج، دار الكتب العلمية، بيروت ،ص ٤٠.

(٢) ينظر: الإسلام بين الشرق والغرب ،علي عزت بيجوفيتش، ترجمة : محمد يوسف عدس (مؤسسة العلم الحديث / بيروت)، ط١، ١٩٩٤م، ص ٥٤

(٣) هو مؤلف كتاب مكانة الأخلاق من الفلسفة.

(٤) مكانة الأخلاق من الفلسفة، هوفدنج ،ص ١١٣

ومما تقدم يتضح مقدار هشاشة الفرضية التي بني عليها الاتجاه التطوري في تفسير نشأة الدين، وأنها قائمة على أرض رخوة لا تستقر أمام النقد العلمي. [١] , ويزداد هذا الاضطراب وضوحًا مع اعتمادها فرضية أخرى بلا سند، هي قياس تطور الإدراك الروحي والديني على نمو الجسد وقوته؛ فكما ينتقل الفرد من الطفولة إلى الشباب فالنضج، زُعِم أنّ الإنسانية بدأت بالخرافة والسذاجة، ثم ارتقت إلى العقيدة السليمة بعد عناء وجهد, غير أن هذا القياس لا يقوم على دليل معتبر، ويتجاهل أن التحول من التوحيد إلى الشرك ثابت تاريخيًا، لا العكس.[٢].

وللوصول لفهم فكرة مفادها أن قياس الأديان على الصناعات والفنون , ما هو إلا حالة للجمع بين محورين لا تجمعهما عوامل وحقيقة مشتركة، فمختلفة في طبائعهما و فنونهما, فبينما حقائق وأن للعلوم حقائق كثيرة ترحل الإنسان في تعلمها واكتسابها، ويحتاج استعانة بعدة أدوات مختلفة، وتوجد عناصر حقيقة الدين مستقرة بين تلك الجوانح، وتكون حقائقها واضحة لدى الحواس، يمكن إدراكها بالتفاتة بسيطة، ولا يمكن أن يكون هذا الإدراك حقيقة من خلال جمع محصول معلومات تخص الكون ودقائقه الجزئية، ولا أكثر صعوبة من ذلك كما كان يظن , فهو يحتاج إلى تمهيد وتقديم لها في نظرية شاملة يؤخذ فيها بصورة كلية، قبل خضوع أجزاؤها وتفاصيلها للفحص والتحليل المنهجي في ذلك الكون الكبير والرهيب يستوي العالم والجاهل في حيرتهم وإعجابهم به[٣].

ومن خلال المنطق السليم يتم التعرف على حالة الأديان قديماً, فيما قبل التاريخ وتسترُشد في معالجة قرائنها، لا بقصص صناعتها وفنونها، بل بطفولة الديانات المعروفة منذ فجر التأريخ حتى هذا الوقت، ولا تتم هذه المعرفة إلا عن طريق الإستقراء حيث بدأت بعقيدة نقية هي عقيدة التوحيد، ثم تسللت إليها الأباطيل و الأكاذيب على طول العهد، والمؤكد بديهياً أنها سنة الديانات كلها, إذ تبدأ بداية توحيدية ثم تدخلها الترهات الإنسانية[٤].

---

(١) نشأة العقيدة الإلهية, العقاد، ص١

(٢) ينظر : الدين، عبد الله دراز , ص١١٦

(٣) ينظر : أصل الأنواع (نشأة الأنواع الحية عن طريق الانتقاء الطبيعي) تشارلز داروين، ترجمة أسماعيل مظهر، مراجعة عبد الحليم منتصر (المؤسسة المصرية العامة للترجمة / القاهرة) ،ص ٧٩.

(٤) ينظر : نظرية التطور عند علماء المسلمين، محمد احميمد». مؤرشف من الأصل في ٠٢ مارس ٢٠٢٢ اطلع عليه بتاريخ ٠٢ مارس ٢٠٢٠.

ولا يصحّ بناء مقارنة بين تطوّر الدين وتطوّر الفنون اعتمادًا على تشابهات سطحية أو حيل لفظية فارغة من الدقة؛ فالأمر يتطلب النظر في أعماق الظواهر وجواهرها, وعند هذه النقطة يتبدّل القياس ذاته ليصبح حجة بيد القائلين بفطرية التدين؛ إذ إن تطوّر الفنون شأن الكائنات الحيّة يبدأ بصور بسيطة، أولية، متجانسة، ثم يتجه تدريجيًا نحو التركيب والتعقيد، ويزداد ابتعاده عن الوحدة الأصلية كلما تعاظم التعدد والتشعب فيه. وهذا المسار نفسه يوحي بأنها تحوّلت من الحالة الواحدة الواضحة إلى التكثر المتشعب، ومن البساطة إلى التعقيد، فضلًا عن ما يتخلل ذلك من سرديات خيالية وأساطير لا ضابط لها من عقل أو معيار راسخ.

أما مفهوم التطور بالمعنى الأدبي، أي الارتقاء من النقص إلى الكمال، ولا يوجد قانونًا علميًا ثابتًا، ولا سنّة كونية مطّردة يمكن تطبيقها آليًا على تاريخ الإنسان, بل هو قيمة عليا تتطلع إليها النفوس، وتعمل من أجل بلوغها، فتدركها أحيانًا، وتفشل في تحقيقها أحيانًا أخرى. ولا شك أن كل مصلح لا بد أن يحمل إيمانًا بإمكان الوصول إلى تلك الغايات السامية؛ إذ لولا الثقة بقابلية الأخلاق والمعتقدات للتحول نحو الأفضل لتعطّل التشريع، ولغدا أي جهد يُبذل في سبيل التقدم نوعًا من العبث. غير أن الفارق كبير بين إمكان الترقي ووقوعه فعلاً؛ فبلوغ هذه الغاية يحتاج إلى عزيمة جادّة ومجاهدة دائمة. وتاريخ الإنسانية لا يتحرك في مسار واحد صاعد مستقيم، بل يشهد مدًّا وجزرًا، وتقدمًا وتراجعًا، تبعًا لما يبذله الإنسان من إرادة وجهد لتحقيق الارتقاء المنشود [1]

ومن هذا نستنتج أن التحليل النفسي، والشواهد التأريخية، والتطور المشروع، لا تقوى على الوقوف في وجه الدفا ع عن النظريات المسماة بالتطورية , التي تجعل الأسطورة والخرافة السردية أصل الديانات، لكنها على عكس ذلك تميل إلى ترجيح نظرية المقابلة غير أن هذا التأييد لا يرقيها إلى صف الحقائق التأريخية المؤكدة كونها لا تقدم ضمانا منطقيا ولا واقعيا تثبت به الحوادث التي كانت تحدث فعلا على وفق ما ألفناه من أوضا ع، وليس على ما ينبغي أن يكون عليه الأمر بل هي نظرية ثالثة يمكن الإشارة إليها والأخذ بها في هذه المسألة ومفادها أن الرشد والضلالة في المنطوق الديني ليسا ظاهرتين محضتي التعاقب ارتفاعا وانخفاضا على مر التاريخ بل يعدان ظاهرتين متساويتي الحدوث ومتعاصرتين، موزعتان في كل أمة وفي كل، يحكم اختلاف طبائع الأفراد درجات استقامة حدسهم العقلي ونُبل حسهم الباطني

(١) ينظر : المشترك بين الأديان السماوية والعالمية، ص ٤٠.

يكاد لا يخلو جيل من نفوس نظيفة السجية تدرك الحقيقة الماثلة أمامهم نقية من شوائب الأساطير والخرافات .

ولعل هذا التصوير هو الأقرب إلى الواقع المعلوم؛ إذ يقرر عدد من أبرز مؤرخي الأديان الموثوق ببحثهم أن أكثر الشعوب انغماسًا في الهمجية والوثنية لم تخلُ من الاعتقاد بوجود إله خالق، يُعدّ رب الأرباب والمهيمن على الكون بأسره, غير أنّ ثمّة فجوة زمنية واسعة تفصل بين العصور التي توافرت لنا عنها معارف موثّقة، وبين البدايات الأولى للنشاط الإنساني على الأرض. وهذه الفجوة لا يمكن سدّها أو تجاوزها بادّعاء القدرة على إثبات الوقائع المفقودة عبر التخمين القائم على مجرّد القياس والمقارنة الشكلية بين الحاضر والماضي السحيق؛ ذلك أن مثل هذا النهج يتجاهل اختلاف الظروف والسياقات بين طرفي المقارنة، فيقدّم توافقًا ظاهريًا لا يستند إلى دليل علمي حاسم. (١).

لقد عقمت وسائل العلوم الحديثة و التجارب المختبرية المتوالية على تقديم جواب شاف يطمئن إليه الفكر عن ماهية ديانة الإنسان الأولى، ما عدا تلك التي استعانت بالنصوص التي ذكرت ذلك من الكتب السماوية، إذ أنه سيجد فيها ما يطئن اليه من قصص تعضد رأي العلماء بأولية العقيدة الإلهية الصحيحة، لا في الغرائز، إذ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾(٢)، وكذلك فيما يتصل بتطور الحياة الدينية عبر الزمن؛ فإن هذه النصوص تؤكد أن الإنسان بدأ وجوده على الجادة، مجتمعًا على الحق، وأن مظاهر الانحراف والاختلاف لم تكن أصلًا في حياته، بل جاءت لاحقًا كطارئ دخيل على الفطرة الأولى المستقيمة. ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾(٣) , ويمكن القول أن اتساع الخلاف واستمراره بدافع من علم الوراثة وتثقيف جيل الناشئين عليه عقائديا قال رسول الله ﷺ (كُلُّ مَوْلود يُولَد على الفِطْرَة، فأَبَواه يُهَوِّدَانه، أو يُنَصِّرانه، أو يُمَجِّسَانه) (٤), وبناءً على ذلك، فقد اتفقت الكتب السماوية على أن الجماعة

(١) الدين، ص١٦٦.

(٢) سورة الروم، الآية ٣٠.

(٣) سورة البقرة، الآية ٢١٣.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين ،رقم الحديث ١٣٨٥.

البشرية الأولى لم تُترك لتجاربها وحدها دون هداية، بل كانت منذ اللحظة الأولى مشمولة بنور الوحي، تتلقّى الإرشاد والتذكير من السماء. وكان آدم عليه السلام هو أول الموحِّدين وأول الملهَمين إلى الإيمان والخضوع، وأسبق الخلق إلى التضرّع والإنابة.

وبالرجوع إلى هذه النصوص يكشف من جهة أخرى عن حقيقة مهمّة، وهي أن الوسائل العلمية البشرية مهما تقدمت لا تستطيع بمناهجها الاستقرائية والاستنتاجية أن تحسم يقينًا مسألة نشأة الدين أو تحدد نقطة بدايته الحقيقية؛ لأن هذه القضية من صميم الغيب، ولا يتسع لها نطاق البحث التجريبي. ومن ثم يبقى الوحي وحده المصدر القادر على تقديم الإجابة الصحيحة لهذه الإشكالية، لأنه يجاوز حدود المعرفة البشرية ويكشف ما لا تصل إليه ملكات الإنسان وحدها.

نخلص مما سبق إلى أن المحاولات التي سعت لتحديد ديانة الإنسان الأول بالرجوع إلى ديانات الأمم القديمة أو ما وُصف بالديانات البدائية، انتهت إلى صور متضاربة: بعضها اعتُبر قاصرًا، وبعضها قُدِّم على أنه أصح وأكمل، ثم أُنشئت تصورات ثالثة تلفيقية بينهما. غير أن هذه كلها لم تخرج عن نطاق الافتراضات المبنية على أسس غير راسخة، ولم تقدم تفسيرًا علميًا مقنعًا يرقى إلى مستوى الحقيقة التي يتطلّبها البحث المنهجي السليم؛ بل لم تتجاوز كونها احتمالات تقترب من الصواب حينًا وتبتعد عنه حينًا آخر.(١)

وعليه، فإن عرضنا لبعض تلك النظريات لا يعني تبنّي دعاواها الواسعة التي تزعم رسم الصورة الأولى والمطلقة لبدايات الظاهرة الدينية، وإنما سيكون تعاملنا معها تعاملاً نقديًا تحليليًا، نستفيد فيه من جانبها التفسيري دون التسليم بادعاءاتها، مع الاكتفاء بما يمكن إثباته في الإطار التاريخي النسبي، دون تعدٍّ إلى ما هو أوسع من ذلك أو أكثر جزمًا.

المطلب الثالث : موقف العقيدة الإسلامية من مسألة نشوء وتطور الأديان

إن للعقيدة الإسلامية وبناؤها في نفوس الأفراد دور هام وعظيم في تكوين الشخصية المسلمة المثالية ؛ لأن العقيدة هي المحرك الأساسي لسلوك الأفراد، وهي القاعدة الصلبة التي يقوم عليها بناء النفس البشرية والمجتمع الإنساني الفاضل، وأن أصل الإنسان خلق من نفس واحدة، إذ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ

(١) ينظر : نشأة العقيدة الألهية، ص٥٠.

﴿ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾[١] , إذ قالوا: إنهم خلقوا من آدم عليه السلام، وعليه اتفقت كلمة أصحاب الملل، من "اليهود والنصارى والمسلمون" إلا من شذ منهم واتبع الملاحُدة في أقوالهم، وآرائهم، أن جميع أصحاب الأديان السماوية ذكروا أن الأصل في الإنسان هو التوحيد[٢]، والشرك طارئ عليهم[٣] ويستدل عليه من وجوه:

١- إن الأنسان الأول هو سيدنا آدم عليه السلام إذ كان يعبد الله عز وجل ولا يشرك به شيئا وكان نبيا أيضا فعلم أبناءُه التوحيد ؛ إذ سئل النبي محمد ﷺ عن آدم عليه السلام ((أنبي هو؟" قال: نعم، نبي مكلم خلقه الله بيده ثم نفخ فيه روحه))[٤]، وهذا ما تقر به كل الديانات السماوية والذين يؤمنون بها بأن الله هو الخالق الأوحد في اليهودية والنصرانية والإسلامية، ولم يكن الإشراك به موجودا في أصل الآدميين، بل كان آدم عليه السلام ومن كان على دينه من بنيه على التوحيد لله، لا تباعهم النبوة، فإن آدم عليه السلام أمرهم بما أمره الله به، فهذا الكلام الذي خاطب الله به آدم عليه السلام وغيره لما أهبطهم قد تضمن أنه أوجب عليهم اتبا ع هداه المنزل.

٢- إن الشرك وتعدد الآلهة أمر طارئ بينه سبحانه وتعالى, فإن البشرية كانت في بداية أمرها على التوحيد، ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٣﴾[٥].

٣- أكد الله عز و جل في كتبه السماوية على أن الفطرة التي فطر الناس عليها هي التوحيد الخالص وهي فطرة الإسلام، فالآيتن تبين أن العباد كلهم مفطورون على التوحيد فهو الأصل في بني آدم عليه السلام، وقد فسر مجاهد الفطرة بأنها الإسلام [٦].

٤- إن الله سبحانه وتعالى بين في كتابه الكريم , أن التوحيد هو أصل دعوة الرسل, و إليه دعوا أقوامهم، وكل رسول افتتح دعوته لأمته بالدعوة إلى عبادة الله.

---

(١) سورة النساء، الآية ١.

(٢) ينظر : عقيدة أهل السنة والجماعة مفهوما وخصائص أهلها، محمد بن إبراهيم، دار خزيمة، الرياض، ط٣، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م، ص١٨٣٦.

(٣) ينظر : العقيدة الدينية نشأتها وتطورها، فرج اله عبد الباري، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، ص ١١٢.

(٤) ينظر : المصدر السابق ص ١١٢.

(٥) سورة يونس، الآية ١٣.

(٦) تفسير القرآن العظيم , ابن كثير ,ط٢, ١٩٩م, ٦ / ٢٤٦

وكان دور الدين واضحًا ومحددًا، يتمثّل في إرشاد الإنسان إلى ما هو أصلح له، وبيان الغاية الحقيقية من وجوده، وتحديد الأهداف السويّة التي ينبغي أن يسعى لتحقيقها. ومع منتصف القرن العشرين، حين سادت فكرة التطور الخطي للمجتمع البشري نحو التقدم[١]، انشغل كثير من المفكرين بتشييد نظريات تقوم على هذه الرؤية وتفسير حركة المجتمع من خلالها. إلا أن تلك الفرضية لم تعد تحظى اليوم بالقبول لدى أغلب الباحثين في العلوم الاجتماعية، بعدما تبيّن أن اختزال مسار المجتمعات في خط واحد يصعد دومًا نحو التقدم تصور غير دقيق.

ومع ذلك، يظل واقع التغيّر الاجتماعي حقيقة لا يمكن إنكارها، وهنا تتجلى وظيفة الدين الجوهرية في توجيه والتصدي هلذا التغيّر وضبط مساره، بحيث يتهيأ لتحقيق المقاصد والقيم العليا التي يحملها.

إن التغير مقبول ما دام منسجمًا مع إطار الدين ومحقّقًا لغاياته، أما الدين فلا يكون على صواب إذا استجاب لكل تحول دون نظر أو ضابط، لأن قيمه ومقاصده هي التي تمنح التغير شرعيته وتحدّد اتجاهه الصحيح. [٢].

(١) ينظر : إجتماعيات الدين والتدين دراسة في النظريات الاجتماعية الإسلامية , إبراهيم منصور , مجلة المنهاج , العدد ٦٦, ٢٠١٢م,

(٢) ينظر: فهوم تجديد الدين، بسطامي محمد سعيد خير، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، جدة - المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م: ١/٢٠٥.

الخاتمة

١- إنَّ أغلب التعريفات للدين عند علماء الغرب ومفكريهم هي تعريفات ذاتية، أي أنها تحاول إثبات صحة ما يؤمن به الإنسان وإخراج مالا يؤمن به ويعتقد به، على عكس علماء الدين المسلمين الذين لهم ضوابط واضحة المعالم في تعريف الدين وتحديد مكانته،رؤية المفكرين الغربيين للدين ونشاته تختلف مع ما يعتده علماء المسلمين.

٢- إنَّ علماء الغرب ومفكريهم ينفون ربط الدين بالوحي، ولا يعتقدون بأنه توجيهات إلهية، بل يعتقدون بأنه عبارة عن جهد بشري قابل للنقد والتعديل بمرور الزمن.

٣- إنَّ علماء الغرب ومفكريهم اختلفوا في محاولة تفسير نشأة الدين، وكثير منهم اعتبره نمط من أنماط السلوك في علم الاجتماع الديني، وانه خاضع لنظرية التطور، ويرون بأن كثير من العقائد الموجودة في الأديان ما هي إلا صناعة ذهنية إنسانية وليست وحي من الله الخالق.

٤-ربط علماء الغرب نشأة الدين في حياة الشعوب بالتكيف التطوري، وأن الدين ما هو الا ظاهرة اجتماعية مثل كثير من الظواهر التي صنعها الإنسان.

المصادر

- القرآن الكريم.

١. أديان العالم،هوستن سميث، ترجمة: سعيد رستم، دار الجسور الثقافية، الطبعة الثالثة،١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م

٢. الأديان في علم جان بول ويليم، ترجمة: نسيمة بدران، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت ,١٤٢١هـ ٢٠٠١م.

٣. الإسلام بين الشرق والغرب ،علي عزت بيجوفيتش، ترجمة : محمد يوسف عدس (مؤسسة العلم الحديث / بيروت)، ط١ ،دون تاريخ طبع.

٤. الاسلام من وجهة نظر علم الاناسة، كليفورد غيرتز، ترجمه أبو بكر باقادر، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

٥. الأشكال الأولية للحياة الدينية، ايميل دوركهايم، اميتافيزيقيا وايتهد، مكتبة النور ٢٠٠٠م.

٦. أصل الأنواع (نشأة الأنواع الحية عن طريق الانتقاء الطبيعي) تشارلز داروين، ترجمة أسماعيل مظهر، مراجعة عبد الحليم منتصر (المؤسسة المصرية العامة للترجمة / القاهرة) ، دون تاريخ طبع.

٧. بحث موقف الإسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها، محمد عبد الله درازة، منشور مجلة لواء الإسلام، رجب، ١٣٧٧هـ-١٩٥٨م.

٨. البداية والنهاية، ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثم الدمشقي، دار الفكر طبعة، الجزء الرابع : ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م.

٩. تاريخ علاقة الارتباط بين التنظيم الاجتماعي والأخلاقيات والدين، دافيد سي. لاتي ،دون تاريخ طبع.

١٠. التطور البيولوجي للعقل والسلوك الدينيين، ترجمة: مصطفى فهمي، القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٥.

١١. التطور الخالق، هنري برجسون، المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٤م.

١٢. تفسير الطبري، محمد بن جرير بن يزيد، أبو جعفر الطبري ،ت٣١٠هـ، تحقق احمد

شاكر، موسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠.

١٣. دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية لسعود بن عبد العزيز الخلف.

١٤. الدين (بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان)، دار العلم للنشر والتوزيع – القاهرة، ٢٠٠٣م.

١٥. الدين : بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، د. محمد عبد الله دراز، دار القلم للنشر والتوزيع الكويت، ط٢ ,١٣٩٠هـ ١٩٧٠م.

١٦. دين الإنسان، فراس السواح، بحث في ماهية الدِّين ومنشأ الدافع الديني، دمشق: دار علاء الدين، د. ت.

١٧. الدين بين الأخلاق والميتافيزيقا عند شلاير ماخر، ٢٠٠٧م.

١٨. الدين والعلم، شكري بوشغالة، مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث.

١٩. روي آى رابابورت Roy A. Rappaport 1967 خنازير السلف: طقوس في علم البيئة من سكان غينيا الجديدة.

٢٠. صندوق داروين الاسود، مايكل بهي، ترجمه: مؤمن الحسن وآخرون (مركز تكوين / المملكة العربية السعودية)، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م.

٢١. ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث وتطورها، سلطان عبدالرحمن العميري، مكتبة النور، ٢٠١٩م.

٢٢. العقل والعلم في القرآن الكريم، يوسف القرضاوي، ط١، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٩٦م.

٢٣. العقيدة الدينية نشأتها وتطورها، فرج اله عبد الباري، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

٢٤. عقيدة أهل السنة والجماعة مفهوما وخصائص أهلها، محمد بن إبراهيم، دار خزيمة، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

٢٥. فتح الباري شرح صحيح البخاري، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن السلامي البغدادي ،مكتبة الغرباء الأثري، المدينة النبوية، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

٢٦. فهوم تجديد الدين، بسطامي محمد سعيد خير، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، جدة - المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م.

٢٧. القاموس المحيط: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة،

بيروت-لبنان، الطبعة الرابعة،١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

٢٨. قصة الحضارة، ديورانت ول : ترجمة زكي نجيب محمود، الأدارة الثقافية،

٢٩. قصة الفلسفة الحديثة، زكي نجيب واحمد امين (مطبعة لجنة التأليف والترجمة / القاهرة)، ١٣٥٥هـ.

٣٠. الكليات، ابولبقاء الكفوي، تحقيق : عدنان درويش، الطبعة الثانية مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٩٨م.

٣١. كيف يتكوّن الدين؟، ترجمة وتقديم : رضوان السيّد، جداول للنشر، آذار-مارس٢٠١٧م،

٣٢. لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الانصاري دار العلم للملايين، بيروت لبنان، الطبعة السابعة، ١٩٨٦م.

٣٣. مذهب النشوء والارتقاء، منيرة الغاياتي، مكتبة النور، ٢٠١٢م

٣٤. المشترك بين الأديان السماوية والعالمية، سومية حجاج، دار الكتب العلمية، بيروت

٣٥. المقدس والعادي، إلياد مرسيا، ترجمة عادل العوى، صحارى للصحافة، ١٩٩٤م.

٣٦. مكانة الأخلاق من الفلسفة، هوفدنج ،دون تاريخ طبع.

٣٧. الموسوعة الفلسفية المختصرة، ترجمة فؤاد كامل وزميلاه ،بيروت، دار القلم.

٣٨. موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة: خليل احمد خليل، إشراف :احمد عويدان، دار عويدا، بيروت – باريس، ط١.

٣٩. نشأة الإنسان والإنتقاء الجنسي، تشارلز داروين، ترجمة: مجدي محمد المليجي (نشر وتوزيع المجلس الأعلى للثقافة / القاهرة) ط١، ٢٠٠٥م.

٤٠. نشأة العقيدة الألهية، عباس محمود العقاد، دار المعارف، ٢٠٠٨م.

٤١. نظرية التطور عند عماء المسلمين، محمد احميمد . مؤرشف من الأصل في ٠٢ مارس ٢٠٢٢ اطلع عليه بتاريخ ٠٢ مارس ٢٠٢٠.

٤٢. الوجودية مذهب أنساني، جون بول سارتر، ترجمة: عبد المنعم حنفي، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة- مصر،د.ط، ١٩٦٣م.

References:

- The Holy Quran.

1. The Religions of the World، Dr. Huston Smith، translated by: Said Rustum، Al-Jisour Cultural House، 3rd edition، 1428 AH - 2007 CE

2. Religions in the Science of Jean-Paul Willaume، translated by: Nasima Badran، University Foundation for Studies، Publishing and Distribution - Beirut (1421 AH - 2001 CE)

3. Islam Between East and West، Ali Izzet Begovic، translated by: Muhammad Youssef Adas (Modern Science Foundation / Beirut)، 1st edition

4. Islam from the Perspective of Anthropology، Clifford Geertz، translated by Abu Bakr Baqader، University Foundation for Studies and Publishing، 1st edition، 1413 AH - 1993 CE

5. The Elementary Forms of Religious Life، Emile Durkheim، Metaphysics and Whitehead، Al-Nour Library

6. The Elementary Forms of Religious Life، Emile Durkheim، 2000 CE

7. On the Origin of Species (The Origin of Living Species through Natural Selection)، Charles Darwin، translated by Ismail Mazhar، reviewed by Abdul Halim Muntasir (Egyptian General Foundation for Translation / Cairo)، no publication date

8. Which is Correct: Creation or Evolution?، Dr. W. A. What is the Origin of Man?، Maurice Bucaille

9. A Study of Islam's Position on Other Religions and Its Relationship with Them، the late Dr. Muhammad Abdullah Duraza، published in the Journal of the Flag of Islam، Rajab، 1377 AH - 1958 CE

10. The Beginning and the End، Ibn Kathir، Abu Al-Fida Ismail bin Umar Al-Qurashi Al-Basri then Al-Dimashqi، Dar Al-Fikr edition، Volume 4: 1407 AH - 1986 CE

11. The History of the Relationship Between Social Organization، Ethics، and

Religion، David C. Lati

12. The Biological Evolution of the Mind and Religious Behavior، translated by: Mustafa Fahmy، Cairo: National Center for Translation، 2015

13. Creative Evolution، Henri Bergson، National Center for Translation، 2004 CE

14. Tafsir Al-Tabari، Muhammad bin Jarir Al-Tabari، Abu Jaafar Al-Tabari، d. 310 AH، verified by Ahmed Shakir، Al-Risala Foundation، Beirut، 1st edition، 2000

15. Studies in Jewish and Christian Religions، Saud bin Abdul Aziz Al-Khalaf

16. Religion (Preliminary Research for the Study of the History of Religions)، Dar Al-'Ilm for Publishing and Distribution - Cairo، 2003 CE

17. Religion: Preliminary Research for the Study of the History of Religions، Dr. Muhammad Abdullah Duraz، Dar Al-Qalam for Publishing and Distribution - Kuwait، 2nd edition (1390 AH - 1970 CE)

18. The Religion of Man، Firas Al-Sawah، a study on the essence of religion and the origin of religious motivation، Damascus: Dar Alaa Al-Din، undated

19. Religion Between Ethics and Metaphysics According to Schleiermacher، 2007 CE

20. Religion and Science، Shukri Bouchghala، Believers Without Borders for Studies and Research

21. Pigs of the Sulu: Rituals in the Ecology of New Guinea Inhabitants، Roy A. Rappaport، 1967

22. The Black Box of Darwin، Michael Behe، translated by: Moamen Al-Hassan and others (Formation Center / Kingdom of Saudi Arabia)، 1st edition، 2014 CE

23. The Phenomenon of Critique of Religion in Modern Western Thought and Its Development، Sultan Abdul Rahman Al-Omairi، Al-Nour Library، 2019 CE

24. The Mind and Science in the Holy Quran، Yusuf Al-Qaradawi، 1st edition، Wahba Library، Cairo، 1996 CE

25. Religious Doctrine: Its Origin and Evolution، Faraj Al-Abd Al-Bari، 1427

AH - 2006 CE

26. The Doctrine of the Ahl al-Sunnah wa al-Jama'ah: Concepts and Characteristics، Muhammad bin Ibrahim، Dar Khuzaymah، Riyadh، 3rd edition، 1419 AH - 1998 CE.

27. Fath al-Bari: Explanation of Sahih Al-Bukhari، Zain al-Din Abdul Rahman bin Ahmad bin Rajab Al-Hanbali، Al-Ghurabaa Al-Athari Library، Medina، 1st edition 1417 AH - 1996 CE

28. The Concept of Religious Renewal، Bostami Muhammad Said Khair، Center for Foundations for Studies and Research، Jeddah - Kingdom of Saudi Arabia، 1st edition، 1433 AH - 2012 CE

29. The Comprehensive Dictionary، Majd al-Din Muhammad bin Yakub Al-Firozabadi، Al-Risala Foundation، Beirut - Lebanon، 4th edition، 1415 AH - 1994 CE

30. The Story of Civilization، Will Durant، translated by Zaki Naguib Mahfouz، Cultural Administration

31. The Story of Modern Philosophy، Zaki Naguib and Ahmed Amin (Printing Committee for Authorship and Translation / Cairo)، 1355 AH

32. Glossary of Art Terms، Al-Tahanawi

33. The Universals، Abu al-Baqa al-Kafawi، verified by: Adnan Darwish، 2nd edition، Al-Risala Foundation - Beirut 1998 CE

34. How is Religion Formed?، translated and introduced by: Ridwan Al-Sayyid، Jadawel for Publishing، March 2017 CE

35. The Tongue of the Arabs، Jamal al-Din Muhammad bin Makram bin Manzur Al-Ansari، Dar Al-'Ilm for Millions، Beirut - Lebanon، 7th edition، 1986 CE

36. The Doctrine of Evolution، Munira Al-Ghayati، Al-Nour Library، 2012 CE

37. Commonalities Among Divine and Global Religions، Soumia Hajjaj، Dar Al-Kutub Al-'Ilmiyyah، Beirut.

38. Commonalities Among Divine and Global Religions، Soumia Hajjaj، Dar

Al-Kutub Al-'Ilmiyyah، Beirut

39. The Sacred and the Ordinary، Mircea Eliade، translated by Adel Al-Awa، Sahara for Press، 1994 CE

40. The Status of Ethics in Philosophy، Hovdeng

41. The Concise Philosophical Encyclopedia، translated by Fouad Kamel and colleagues، Beirut، Dar Al-Qalam

42. Lalande's Philosophical Encyclopedia، translated by Khalil Ahmed Khalil، supervised by Ahmed Owaidan، Dar Owaidan، Beirut - Paris، 1st edition

43. The Origin of Man and Sexual Selection، Charles Darwin، translated by Magdy Mohamed El-Meligy (Published and Distributed by the Supreme Council of Culture / Cairo)، 1st edition، 2005 CE

44. The Origin of Divine Doctrine، Abbas Mahmoud Al-Aqqad، Dar Al-Maaref، 2008 CE

45. The Theory of Evolution Among Muslim Scholars، Muhammad Ahmimd. Archived from the original on March 2، 2022، accessed on March 2، 2020

46. Existentialism: A Humanism، Jean-Paul Sartre، translated by Abdel Moneim Hanafi، Egyptian House for Printing and Publishing، Cairo - Egypt، undated، 1963 CE.